الباب الخامس
أدوات الدعوة

قدرة المعلم

إذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل، وهما أن العالم كان عند انتشارها محتاجًا إليها، وكان مستعدا لسماعها، وهما شيئان مختلفان لا يذكران في معرض الترادف والتماثل، لأن الحاجة إلى الدعوة كالعلة،والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة، أو كالاستعداد لطلب الدواء، وقد يتفقان في وقت واحد، وقد توُجد العلة، ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله، إذا عُرض على العليل.

وجملة ما يفُهم من العصور التمهيدية التي لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجًا إلى الدعوة المسيحية، مستعدا لسماعها، سواء قصرنا الكلام على عالم إسرائيل، أو عممنا به العالم أجمع.

فعالم إسرائيل كان يؤُمن بالمسيح المنتظر، وبموعده في تلك الحقبة من الزمن،والعالم المعمور كان يؤُمن إيماناً «سلبيًّا» بإفلاس الوثنية، وإقفار النفوس من الرجاء ، وكان عامته في بؤس ويأس، وخاصته مستسلمين للمتاع، أو مستسلمين للتصوف، من كان منهم يفكر دان بالأبيقورية، أو دان بالرواقية، ومن كان مطبوعًا على التدين والبحث في شئون الغيب، دان بِنحِلَة خاصةٍ من النِّحَلِ السرية التي تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات.

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والرواقية والنِّحَل السرية، فَهُمْ إذن في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء، وأسلم ما يقُال عنه في صدد العقيدة المقبلة أنَّه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها، وأنَّه قد يتفتح بقبولها فيكون شعورالخواء من أسباب الإقبال عليها والرغبة فيها.

كان العالم في عصر الميلاد محتاجًا للعقيدة مستعدا لسماعها، ما في ذلك ريب، ولكنَّه مع هذه الحاجة، وهذا الاستعداد لم يكن خليقًا أن يظفر بتلك العقيدة عفوًا صفوًا بغير جهاد من رسلها ودعاتها، وبغير كفاية عالية في أولئك الر سل والدعاة.

لم يكن احتياج العالم للعقيدة، ولا استعداده لسماعها مغنياً للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح، وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس، واجتذاب الأسماع، والغلبة على ما يقُاومه من المكابرة والعناد.

وقد كانت هذه القدرة موفورة في مُعلم المسيحية، وبحق سُمي المعلم ونوُدي به فيَّ مختلف المجامع والمحافل، لأن مُهمته الكبرى كانت مُهمة تعليم وإحياء روحي حيوي من طريق التعليم.

نوُدي المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل مرات، ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداهبه خصومه، ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين.

وكان نداؤهم له بهذا اللقب، لأنَّهم يجدون في كلامه علماً واسعاً بالكتب والأسفار، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها، والتعقيب عليها، ويكفي ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنَّه كان يرتل المزامير، وكان يحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال، فضلًا عن الكُتب الخمسة التي نسُبت إلى موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - وفضلاً عن اختلاف المذاهب فيتطبيق الوصايا والأحكام.

ويرُجح بعض المؤرخين أنَّه كان يعرف اليونانية، وأن الحديث الذي دار بينه وبينَّ بيلاطس كان بهذه اللغة، لأن اليونانية كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية، ويحتاجون إلى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية، ومنهم من كان يحتاج إلى بيت المقدس في الأعياد، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسُافرون إلى الإسكندرية وبلاد الإغريق، لا يتفاهمون بغيراليونانية مع أبناء جلدتهم هناك، فلا غرابة في معرفة السيد المسيح باليونانية، كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل، ولكن المُحقق أنَّه كان يعرف العبرية الفُصحى التي تدُرس بها كتب موسى والأنبياء، وأنَّه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء، وأنَّه إذا عرف اليونانية فإنَّما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفةً دراسة، لأن أقواله خلت من الإشارة إلى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة، ولأن العبارات التي جاءت في الأناجيل اليونانية منسوبة إليه تشف عن أصلها الآرامي بما فيها من الجناس، أو من قواعد البلاغة، وإيقاع الألفاظ.

على أن هذا العِلْمَ كله بالثقافة الموسوية الإسرائيلية لم يكن فريدًا بين أحبار اليهود في تلك الآونة، فربما كان في بيت المقدس يومئذٍ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوامن تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح، واقتدروا على الاستشهاد بها، والتعقيب عليها بعارضة قوية، وبديهة حاضرة، ولم تكن لواحد منهم كفاية المُعلم الذي يبث الحياة الروحانية في النفوس، وينفث في الخواطر تلك الراحة التي تشُبه راحة السريرة، حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجُمع وتصُاغ.

لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مُشابهة، ولامُناظرة في القوة والنفاذ.

كانت لغة فذَّة في تركيب كلماتها ومفرداتها، فذَّة في بلاغتها وتصريف معانيها،فذَّ ة في طابعها الذي لا يُشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب.

كانت في تركيبها نمطاً بين النثر المرسل والشعر المنظوم، فكانت فنًّا خاصا ملائماً لدروس التعليم والتشويق، وحفز الذاكرة والخيال، وهو نمط من النَّظْم لا يشُبه نظَمَّ الأعاريض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية، لأن هذا النَّمط من النَّظْمِ غيرمعروف في اللغة الآرامية ولا في اللغة العبرية، ولكنَّه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التي ينتظرها السامع انتظاره للقافية، وإن كانت لاتتكرر بلفظها المعاد.

كان أسلوبه في إيقاع الكلام أسلوباً يكثر فيه الترديد والتقرير، وليس في الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب، ولكنَّها مع التأمل تدل عليه من بعيد، **كما في هذا المثال:**

"اسألوا تعطوا.

اطلبوا تجدوا.

اقرعوا يفتح لكم.

لأن من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له الباب.

من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعُطيه حجراً.

أو يسأله سمكة فيعطيه حية.

أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً.

فإذا كنتم – وأنتم أشرار – تحسنون العطاء للأبناء، فكيف بالأب الذي في السماء يعُطي الروح القدس لمن يسألون".

أو كما في هذا المثال:

"كما في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن الإنسان.

كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون، إلى اليوم الذي دخل الفلك وجاء الطوفان، وأهلك الجميع.

كذلك في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون، ولكن اليوم الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطرت ناراً وكبريتاً من السماء فأهلك الجميع.

هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الإنسان.
في ذلك اليوم من كان على السقف، وأمتعته في البيت، فلا يهبط إليها ليأخذها.
ومن كان في الحقل فلا يرجع إلى الوراء، ألا تذكرون امرأة لوط؟من طلب الخلاص لنفسه يهلكها، ومن أهلكها يُحييها.
أقول لكم فاستمعوا: في تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه.
وتكون اثنتان تطحنان، تؤخذ إحداهما وتترك الأخرى.
ويكون اثنان في الحقل يؤُخذ هذا ويتُرك ذاك.
... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور".

***

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم:
«يا أورشليم! يا أورشليم!
«يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين.
«كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها.
«ولم تريدوا.
«هو ذا بيتكم رهين بالخراب».
وقريب منه نذيره لبنات أورشليم.
«يا بنات أورشليم!
«لا تبكين عليَّ، وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين.
«أيام يقولون طُوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم ترُضع.
أيام ينُادون الجبال أن تسقط عليهم، والآكام أن تكون غطاءً لهم.
إن كان بالغض الرطب يصنع هذا، فباليابس ماذا يصنعون؟».

***

هذه النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه في تركيب اللفظ، وسياق النذيروالتذكير.
أما أسلوب المعنى فقد اشتهُر منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب الأمثال، ومنه القالب الذي يعول على الرمز، والقالب الذي يعول على الحكمة، والقالب الذي يعول على القياس، والقالب الذي يعول على التشبيهات، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذي انفرد

به بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير، وإنْ كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال.

فمن نماذج المثل الذي يعول على الرمز مثل الزارع والبذور «زارع خرج ليزرع، وفيما هو في الطريق سقط بعض البذور، فجاءت طيور السماء وأكلته، وسقط بعضها في مكان محجر خفيف التربة، فنبتت على الأثر، ثمُ لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق، وإذا لم يكن له عمق في جوف الأرض جف، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثُمر، وسقط غيرها في الأرض الجيدة فأعطى ثمرًا يصعد وينمو، فأتى واحد بثلاثين، وآخر بستين، وآخر بمائة، من له أذنان للسمع فليسمع.

ومن نماذجه مثل فتيات العرس:»يشُبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن للقاء العريس، خمس منهن فطنات، وخمس غافلات، أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتاً، وأما الفطنات فأخذن الزيت في آنيتهن مع المصابيح، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النُّعاس جميعًا، ثمُ علت الصيحة عند منتصف الليل: هاهو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه. فالتفتت الغافلات إلى مصابيحهن تنطفئ، وسألن زميلاتهن قليلًا من زيتهن، فأجبنهن: لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيث يبُاع. وفيما هن ذاهبات قدم العريس ... وصحبته الحاضرات المستعدات إلى محفل الزفاف، ثمُ جاءت الغائبات، وقد أغلق الباب وطفقن ينُادين: افتح لنا يا سيد،افتح لنا يا سيد. فأجابهن: من أنتن؟ إنِّي لا أعرفكن! ومنه قوله:»أنا خبز الحياة، من يقُبل عليَّ لا يجوع».

ومن نماذج المثل الذي يعول على الحكمة: «لا تطرحوا الدر أمام الخنازير».

«بالكيل الذي تكيلون يكُال لكم». «أيُّها المُداوي داو نفسك»، «خمر جديدة في زقاق قديمة». «لا تدع يسارك تعلم بما تصنع يمينك». «من ثمارهم تعرفونهم»، «لا كرامة لنبي في وطنه».

ومن نماذج المثل الذي يعول على القياس:»إن كُنتم تحبون من يحُبونكم فأي فضل لكم؟ أليس ذلك شأن العشارين»؟

ومنه في تبكيت من ينُكرون عليه صحبة الخاطئين:»لا حاجة بالأصحاء إلى طبيب،إنَّما المرضى يحتاجون إلى الأطباء» ومنه:»إنْ كان النور الذي فيك ظلامًا، فالظلام كم يكون»!

ومن نماذج المثل الذي يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه:»أنتم ملح الأرض،فإنْ فَسَدَ الملح فبماذا يصلح؟ إنَّه لا يصلح إذن إلا لأنْ لُقى على التراب ويدُاس، أنتم نور العالم، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل، وما من سراج يوُقد ليوضع تحت المكيال، ولكنَّه يرفع على المنار يستضيء به جميع من في الدار».

ومن نماذجه:»لا تكنزوا لكم كُنوزًا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ،وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيث لا سوس ولاصدأ ولا لصوص. وحيث يكون الكنز يكون القلب».

وقد أثِرَ عن السيد المسيح في جميع الأمثال حُب المقابلة بين الأضداد لجلاء المعاني، وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة: «يرون القذى في أعين غيرهم، ولا يرون الخشبة في أعينهم»، «يحُاسبون على البعوضة، ويبلعون الجمل»، «في الظاهر جدران مبيضة، وفي الباطن عظام نخرة»، «غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل في سم الخياط»، ومُعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر، جواباً عن سؤال، أو تعقيباًعلى حادث عارض، أو تقريعًا لمكابر، فيندر أن يسترسل فيها المُعلم البصير إلى غيرالمُناسبة التي توحيها، ولهذا يرُجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة واحدة، وأن الخطبة على الجبل – وهي أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات – جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب-الموضوعات في أوقاتها ومناسباتها.

وإذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه في أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعاني المنسوقة في البديهة الملهمة، فقد كانت سرعة البديهة تسُعفه في غير هذه الأحوال، فتجري كلماته في مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير، لأنَّه مُنتظم غير مُرسل، ولكنَّه في الواقع لم يكن محضرًا قبل ساعته،ً وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذي يجود به لم يخل قط من التَّفكيرفيه، وأنَّه تعود التفكير في المواقف المتشابهة، فانسبكت قوالب التعبير في بواطن قريحته غير مقصودة ولا مُتكلفة، وهي عادة يعرفها من تعود التفكير والتعبير وحضورالشعور بينهم وبين الجماهير، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية في لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين، فهم مرتجلون يخُيّل إليهم قبل غيرهم أنَّ هم يسمعون كلاماً معهوداً،ويوشك أن يتساءلوا: أين يا ترى سمعوه قبل الآن؟ والواقع أنهم نقلوه من وعيهم الخفي إلى وعيهم الظاهر، فكان شأنهم كشأن سامعيه في استغرابه، والواقع أيضاً أن النَّاس

حين يستمعون إليه يرونه غريباً وقريباً في وقت واحد: غريباً لأنَّه كان يسُاورهمولا يدركونه، وقريباً لأنَّ هم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الإدراك.

***

ومن كان كالسيد المسيح تربَّى مُنذ طفولته على التلاوة في كتب الأنبياء، وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة، والأمثال المرددة، واستقامت فطرته على الوحي والإيحاء فليس أقرب إليه من أنْ ينطلق بكلام يحيك في الأسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده وإملاء بديهته، وهذه هي البديهة التي كان يعنيها حين يوُصي تلاميذه بالاعتماد على الطبع وترك الاهتمام بالتزويق والتنميق قبل الساعة التي تدعوهم دواعيها للخطاب.

ولعل سامعي العظات الدينية في عصر المسيح قد سمعوا الأمثال في قوالبها مرات كثيرة، ولعلهم كانوا يعُاودون سماعها كلما دخلوا معبدًا، أو استمعوا إلى خطيب في غيرالمعابد، فإن نقُاد البيان العبري والآرامي يردون هذه الصيغ البيانية إلى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين، فلم يكن المسيح مبدعًا للأمثال، ولا لقوالبها التي تعول على الرموز، أو الحكم، أو التشبيهات، أو منطق القياس، ولكن الأمر المحقق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التي كانت تشيع في أطوائهم، وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب، الذي كان ينُاجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حيَّة، يحسبون أنَّها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق، ويستولي عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور.

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل إلى سامعه أن يبتعد من مصدره كلما أصغى إليه،ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل إلى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزًا، أو تدني مسافة، وتزيل وحشة بين القائل والسميع. من هذا البيان كان بيان المُعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والإفهام، فمَن فَهِمَ قريبٌ، ومن لم يفهم غير بعيد،وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقُبلون على الاستماع وهم في ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون، ثمُ تتفتح في أذهانهم الخواطر، وتتفق فيها الأشباه،وتتبين الفوارق بين الأضداد، فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة، ويعقبه النور قبسًا وراء قبس، ويدُاخلهم على مهل شعور الأعمى الذي يسترد بصره مشدوهًا بالرؤية لأول مرة،أو شعور المُدلج الذي يصحب الليل من السحر إلى الصباح: هداية في رفق ورحمة،واقتراب في غير عناء ولا اقتحام.

في وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة، أويقتربون منه بالعطف والمودة.

في وسعنا أنْ نتخيل من ثمَ فضل الرسول في الرسالة، فلا رسالة في الحق بغيررسول، ولا سبيل إلى قيام المسيحية بغير مسيح، فإن مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها، وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفاذها، وكل ما عداه فروع وزيادات.

لقد كان لب الرسالة المسيحية في لب رسولها المسيح، هداية إنسان لا صولة له على أحد غير العطف والإلهام، ومكاشفة القلوب والأفهام، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة، لقد كان يوُحنا هو الأولى بالسبق في الميدان؛ لأنَّه صاحب السبق في الدعوة، وصاحب السبق في الشهادة، ولكنَّها دعوة كانت تنتظر صاحبها، وصاحبهاهو المسيح، وكانت حاجة العالم كله إلى الدعوة المطلوبة لا تكفي بغير صاحبها القادرعليها، والصالح لإقامتها؛ لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج إليه.

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول في كل دعوة أنَّهم دعاة، أي أنَّهم شُركاء للمُعلم في نشر الدعوة.

أما الفضل الأول للتلاميذ في الدعوة المسيحية فهو أنَّهم مستجيبون، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم إلى صفوفهم، بل كانوا في الواقع هم الصف الأول السابق إلى الاستجابة، ثمُ تلته صفوف أخرى من أمثاله، ليس فيهم قائد ولا مقود، وكلهم في قبول الدعوة سواء.

كان فضل التلاميذ في الديانة المسيحية أنَّهم أول القابلين، ولا بد أنْ نعَلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين، وطبيعة العاملين.

فالتلاميذ بالنسبة إلى السيد المسيح هم أمته الصغرى، كَبُرت مع الزمن على هذا المثال، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدي بتلك الأمة الصغيرة في الاستجابة، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلهم، وهم الصف الأول في الجيش الواحد، وليسوا هم جيشًا يقُابل جيشًا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوي إليه.

كانوا نموذج الأمة المسيحية في أول الرسالة، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال،وهي لا تخُالف هذا النموذج في التكوين، ولا في الطراز، ومن هنا نقول إن التَّلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أنُاس غيرهم، ولكنَّهم وغيرهم جميعًا مستجيبون للدعوة فوجًا بعد فوج، ورعيلاً وراء رعيل.

في الدعوات قادة ومقودون.

ولكن التَّلاميذ في الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت، لا فرق في بنيتها بين أولين وآخرين.

وليس في سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنَّهم مميزون بصفة القيادة، فهم جميعًا منبيئة واحدة، وربما كانوا جميعًا من سلالة مُتقاربة أو بيوت متجاورة، كأنَّهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدي السيد المسيح.

وكان السيد المسيح ينظر إلى بعضهم، فيقول له: اتبعني. فيتبعه ولا يظهر عليه أنَّه أفضل من غيره بمزية عقلية أو نفسية إلا أن تكون المزية التي يتوسمها فيه السيد فيدعوه من أجلها، وهي مزية الإصغاء والاتباع.

ولم يبد منهم أنَّهم أقدر على فهمه من الآخرين، فلو أصابت القرعة اثني عشرآخرين لكانوا في مثل قُدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول، لأن كفاءتهم - ولا شك- هي الكفاءة الوسطى في كل طائفة بهذا العدد، ومن هذه البيئة، فلم يكن منهم علم بارز لا يتكرر

بهذه النسبة في أيَّة جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى، فلا يقُال في واحد منهم إنَّه واحد من مائة أو واحد من ألف لا يتكرر، أو أن واحدًا منهم تعلم مالا يتعلمه أمثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير، بل كل ما يقال إنَّه مُجنَّد يشُبه غيره من المجندين، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب.

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء في الأناجيل.

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار أنَّه كان اختيارًا نادرًا أو مستعصياً على القائد الحكيم الحصيف، ولعل العامل الأكبر فيه أنَّهم مُختارون من طائفة متعارفة متآلفةً وأن اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بدداً من بيئات متباعدة، فإن المُتآلفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضاً من المتباعدين.

ونحسب أن التَّشبيه بالتجنيد هنا خليق أنْ قُرب إلى الأذهان هذا المعنى الذي نريله المكان الأول في فهم الدعوة وأسباب سريانها.

فالمجندون يقترعون، وكلهم مُتماثلون في شروط التجنيد، ولكنَّهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه، وكل الفئات الأخرى تضُارعها على الجملة في شروط التجنيد.

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التي نفثتها فيهم روح المُعلم القدير.

كان يعرف عيوبهم، وكانوا في أمانتهم وإخلاصهم لا يغُالطون أنفسهم في تلك العيوب.

كان يخُاطبهم فلا يفهمونه، فيسألونه مزيدًا من التوضيح، وكان يخُامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه أنْ يزيدهم إيماناً، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه الشكوك.

ولم يحسب قط أنَّهم طود لا يتزعزع، وأنَّهم عزيمة لا تتضعضع، وأنَّهم يوُاجهون المحنة في كل حال، ولا يدُركهم ضعف النفس يومًا أمام هول من الأهوال.

فقد أنبأهم أنَّهم سيتخلون عنه، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه، وقدلامهم غير مرة، لأنَّهم يتنافسون على السبق، أو لأنَّهم يستبطئون جزاءهم على الإيمان،أو لأنَّهم بعد وعظهم وتذكيرهم لم يزالوا يفُرقون بين النَّاس، ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران،

ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر مما نظر، أو تفوته منهم في أوائلهم حالة ظهرت له في أواخرهم، ولكنَّه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية؛ عَلِمَ أنَّهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم، وليس مطلوباً من النَّاس في العالم الواسع أنْ يدُركوا مقامًا من الإيمان فوق مقام الإخلاص وحسن الاستعداد لإصلاح العيوب، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل إليهم أنْ يسيحوا في أرض لله، ويجعلوامن أنفسهم مثلًا يقتدي به المخلصون.

فهو لم يقصد إعدادهم ليخرجهم طرازًا معصومًا لا عيب فيه، ولا مأخذ فيه،ولكنَّه قصد إعدادهم، ليحسنوا القدوة، ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم، ويستقبلمعهم قبلتهم، ويكُلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون، وقد يستطيع من يقفوهم فوق مااستطاعوه.

ومن العبارات ذات المغزى الكبير في الإنجيل أن المسيح مضى شوطًا بعيدًا في دعوته، ولم يقل لهم إنَّه هو المسيح المنتظر، فشاع ذكره في القرى، وتساءل النَّاس عنه:من يكون؟ فمنهم من يقول إنَّه يوُحنا المعمدان قد بعُث من الموتى، ومنهم من يقول إنَّه إلياس، ومنهم من يقول إنَّه نبي مبعوث، والمسيح لا يقول للتلاميذ إنَّه المسيح، بل سألهم بعد شيوع ذكره، وتساؤل النّاس عنه: وأنتم من تقولون إنِّي أنا هو؟ فأجابه بطرس: أنت المسيح. فانتهره، وأوصاهم ألا يذكروا ذلك لأحد، في رواية إنجيل مرقس،أما في إنجيل مَتَّى فقد رُوي أن بطُرس قال:»أنت هو المسيح ابن لله الحي». فأجاب يسوع وقال: «طُوبى لك يا سمعان بن يونا، أن مخلوقًا من لحم ودم لم يعُلن لك،ولكنَّه أبي الذي في السماوات، وأنا أقول لك إنَّك أنت بطرس[1]، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات، ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد إنَّه هو يسوع المسيح».

أما في إنجيل لوقا فالرواية أقرب إلى رواية إنجيل مُرقس:»ففيما هو يصُلي على انفراد، كان التلاميذ معه فسألهم قائلًا: ماذا تقول الجموع عني؟ فأجابوا أنَّهم يقولون: يوُحنا المعمدان. وآخرون يقولون: إن نبيًّا من القدماء قام. ثم سألهم: وأنتم من تقولون؟ فقال بطُرس: "مسيح الله، فانتهرهم، وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد».

والرواية في يوُحنا أقرب إلى تصوير ما قدمناه، فإن السيد المسيح أحس أن النَّاس يتراجعون عنه « وأن كثيراً من تلاميذه رجعوا إلى الوراء، ولم يمشوا معه، فقال للاثني عشر:

---

1 الكلمة الآرامية "صفا" بمعنى حجر كما فى العربية وبطرس "بيتر" هى ترجمة الكلمة اليونانية.

ألعلكم أنتم تريدون أيضاً أن تذهبوا؟ فأجاب سمعان بطرس: يا رب! إلى أين نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنا، وعرفنا أنَّك أنت المسيح ابن لله الحي.

فأجابهم: «ألست أنا اخترتكم؟ وواحد منكم شيطان»!.

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ، فقال لهم كما جاء في إنجيل يوُحنا: «قال يسوع لليهود الذين آمنوا به إنَّكم إنْ ثبتم في كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذي، وتعرفون الحق، والحق يحُرركم، فأجابوه: إنَّنا ذرية إبراهيم، ولسنا عبيداً لأحد، فكيف تقول إنَّكم ستصيرون أحرارًا؟ قال: الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل للخطيئة فهو عبدٌ للخطيئة، والعبد لا يبقى في البيت أبداً، إنَّما يبقى فيه الابن إلى الأبد، فإنْ حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً، أنا عالم أنَّكم ذرُية إبراهيم، لكنَّ كم ترُيدون قتلي، لأن كلامي لا يقع منكم موقعاً، أنا أتكلم بما رأيت عند أبي، وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم، فأجابوه: إن أبانا إبراهيم، قال: لو كان أباكم لعملتم عمله، ولكنَّكم الآن تطلبون دمي،وأنا إنسان كلمكم بالحق الذي سمعه من لله، هذا لم يعمله إبراهيم، وأنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له: إنَّنا لم نوُلد من سِفَاح، لنا أب واحد هو لله. قال: لو كان لله أباكم لكنتم تحبونني، لأنَّني خرجت من قبل لله، وأتيت إليكم، إنَّني لم آتِ من نفسي بل هو أرسلني ... أنتم من أب واحد هو إبليس»...

فأجابه اليهود:»الحسن تقول إنك سامري بك شيطان. وبعد أن قال لهم « إن من يحفظ كلامي لن يرى الموت»، عادوا يقولون: الآن تبين لنا أن بك شيطاناً، قد مات إبراهيم، وأنت تقول « إنْ حفظ أحد كلامي لن يذوق الموت، من تجعل نفسك؟ ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات»؟!

والعبرة من هذه القصة أن السيد المسيح مضى في دعوته زمناً، ولم يذكر لتلاميذه أنَّه هو المسيح الموعود، وأنَّه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه أنَّهم لا يدُركون مايقول، ولا يفُرقون بين لغة الحس، ولغة الروح، أو لغة المجاز، وأنَّه أشفق يوماً أنْ ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ، وزعموا أنَّهم مثله، فأنكر عليهم دعواهم، وقال لهم: إنَّما بنوة لله بالأعمال،وإنما أنتم بأعمالكم أبناء إبليس!

وقد علم المسيح أنَّه لن يبقى طويلًا مع طلاب التلمذة عليه إلى الأبد، وأنَّه لن يبقى معهم حتَّى يبلغوا من الدراية والإيمان تلك الغاية المُثلى التي ليس فوقها غاية، فإنْ صَمَدَ معه أنُاس

يضعفوا تارة، ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى، ولكنَّهم يحسنون الظن، ويترقبون الأمل في الخلاص من هذا الطريق، فأولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الذين يسُيئون الفهم، ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه.

***

والشائع أن التلاميذ كانوا طائفة من صيادي السمك في بحر الجليل، والمفهوم من هذاعند أنُاس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع أنَّهم في طبقة عمال الصيد الأميين، ولكنَّه فَهْم متعجل مبني على قياس غير صائب، إذ الواقع أنَّهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة، وتراجع ما قيل عن النبوءات، لم يبلغوا في العلم مبلغ الفقهاء في زمانهم، وهو خير، لأنَّهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور، وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكابرة، ولكنَّهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلي في الغباء، وكان منهم من نسُميه في عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل، وهو مَتَّى العشار صاحب الإنجيل المعروف باسمه، وقدرته على كتابة إنجيل – باللغة اليونانية كما هو الأرجح – قدرة لا تتأتى لغير المثقفين، ومنهم يوُحنا الذي ينُسب إليه الإنجيل الرابع، وهو ابن خالة المسيح أو من بني خئولته، وكان صاحب عمل ناجح في تجارة السمك يشُاركه فيه أخوه يعقوب، كما يؤُخذ من إنجيل مرقس حيث يقول: إنَّهما تركا أباهما في السفينة مع الأجُراء، وذهبا وراء السيد المسيح.

ومنهم جيمس قريب المسيح، ويوُحنا، «وابن الرعد» كما سماه المسيح لقوته في الإنذار وتشديد النكير، ومنهم بطرس وهو متكلم جريء صلب العزيمة، مدرب على حمل السلاح كما يؤُخذ من بعض أخبار الإنجيل، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة النَّاس في أمر الدعوة، وأكثرهم واجه الموت في عمله لنشر الدعوة،ولم يحفل بمقاومة ذوي البأس والسلطان.

وقد استمالت الدعوة إليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء،مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول، ومنهم بولس الرسول نفسه، وهو أستاذ في فقه الدين عالم بالتواريخ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا إلى الدعوة عطفًا على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة، لأنَّهم خارجون على نظام

من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون، ولا يجهلون فعل المحاسبة الروحية في تقويضه أو الإجهاز عليه.

***

ومن المعاصرين من يحلو له أنْ يحسب السيد المسيح داعياً إلى الفوضى السياسية متحللًا من النظام، لشدة إنحائه على الشريعة، والجامدين عليها، والمنافقين باسمها، وفاتهم أن الشريعة الفاسدة في أيدي الجامدين أو المنافقين هي الفوضى في صورة أخرى، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضويين، ولا أعداء النظام.

أما البيِّنة في الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه، وترويضه لهم على الطاعة وإنكار الذات، وتقسيمه للأعمال في مجتمعه الصغير - مجتمع التلاميذ - بين أمين للصندوق، ومباشر لمطالب الجماعة، وراع يرعى القطيع في غيبة السيد، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ، وغيرهم من الطارئين.

وأدخل من هذا في باب التنظيم أنَّه اختار أولاً اثني عشر تلميذًا، ثمُ اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين في كل اتجاه، وأنَّهم حين عادوا من رحلتهم أخذهم ناحية في الجبل، ليستمع منهم، ويراجع أعمالهم، ويزيدهم من الوصية والإرشاد.

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين، وكان يحُذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التي يتحطم عليها نظام كل جماعة، وهي فتنة التنافس على الرئاسة، فعلمهم أن الأول فيهم هو خادمهم الأول، وضرب لهم مثلًا فذًّا في تاريخ الدعوات، ليقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه، فجمعهم في محفل، ليغسل أقدامهم بيديه، ونفر بعضهم أول الأمر، ولكنَّهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التي عناها بهذه القدوة، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد إنَّهم يودون لو يأمرهم بأنْ يطُيعوه في غسل الأيدي والرءوس.

وحصر جهده كله في تعويدهم «إنكار الذَّات» وهو فضيلة الفضائل في الأعمال العامة، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التي يدخلونها لدعوة أهلها، ولكنَّه قال لهم:»لا تحملوا كيساً ولا مزوداً ولا أحذية ... وأي بيت دخلتموه فقولوا: سلام، وأي مدينة دخلتموها، ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى سبلها، وانفضوا غبارها من أرجلكم».

وكرر لهم الوصية بالبساطة في العمل والكلام، فأمرهم «ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون، لأنَّهم يلهمون في تلك الساعة ما يقولون، وليسوا هم المتكلمين، بل هوروح أبيهم يتكلم فيهم».

ولم يخفِ عنهم أنَّهم مُلاقون ويلًا من النَّاس، فليكونوا حُكماء كالحيات، وبسطاء كالحمام، أما إذا جد الجد فلا يخافُن من يهلك الجسد، وليخافُن من يهلك الروح.

وقد أثمرت رياضة الحب في تدريب هذا الجند الروحاني ما لا تثمره رياضةً القسوة والصرامة في تدريب جنود القتال، فخرجوا يعملون وهم يعلمون أن الوناء في أداء الأمانة يصُغرهم أمام أنفسهم، ويصُغرهم أمام لله، وليس أقسى على النُّفوس من الشعور بهذا الصغار.

وما هو إلا حان موعدهم ليعملوا وينتشروا في الأرض، حتى خرجوا إلى كل وجهة، وأبعدوا الرحلة في كل مكان معمور، فمنهم من وصل إلى جزر الهند الشرقية كالرسول توُما، ومُنهم من وصل إلى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول أندراوس، ومنهم من شغل بنفسه في البلاد الأوربية، فأرسل صحابته إلى إفريقية الشمالية، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق، فضلًا عن الدعوة في فلسطين.

ولكنَّهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية، كما حفلوا بخطاب الأمم في الجليل وآسيا الصغرى والإسكندرية، وأفادهم التمهيد الذي سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النِّحَل السريَّة في تنظيم الدعوة، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون،يخرجون اثنين اثنين، وينشرون الخلايا في كل بقعة، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمُراسلة والزيارة، وهنا يصح أنْ يقُال إن الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التي سبقتها في العصر السابق لعصر الميلاد، ولا جرم يكون أكبر النجاح الذي أصابوه ملحوظًا في آسيا الصغرى والإسكندرية، حيث عُرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ.

كذلك يبدو أثر «الحالة العالمية» في انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت في كل أمُة، فقد كان المدعوون إلى الدين الجديد من جماهير النَّاس سراعاً إلى القبول، حراصاً على المعاونة والتأييد، ولم يصب الرسل خطر إلا من قبل «السلطةالغالبة»، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله.

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ إلى المجاملة رجاء أنْ تكُسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعُرضون عن الدعوة إذا واجهتهم الصراحة بغير تقية، فكان بطُرس في أنطاكية يجُامل المحافظين، ويعُاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله بقوم من «آل يعقوب»، فوبخه الرسول بولس علانية، وحذَّ ره من مخالفة الدعوة في سبيل مرضاة النَّاس.

على أن بوُلس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة، وكان كما قال في سفركورنثوس الأول «استعبدت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين، وصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود، وللناموسيين كالناموسيين، ولغيرهم كأنَّني بغير ناموس ... صرت لكل كل شيء، لعلي أستخلص من كل حالٍ قوماً..».

ومِنْ ثمَ ولا شك خالط المسيحيين الأول أنُاسٌ ممن تحولوا إلى المسيحية من الوثنية، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها، وشملهم الأعضاء حيناً، لعلهم بعدِّ هجر الوثنية يستقيمون على مناهج الدين الجديد.

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام، كلما نظروا في تواريخ الأقدمين، فوجدوا في كلامهم أنباء لا يسيغونها، وصفات لا يشاهدونها، ولا يعقلونها، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان، أو أعاجيب النقل والرواية،ولكنّنا نعتقد أن التَّ اريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام؛ لأنَّه أصعب تصديقًا من القولَّ بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق، فشتَّ ان عمل المؤمن الذي لا يبُالي الموت تصديقًا لعقيدته، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم أنَّه يكذب، وأنَّه يدعو النَّاس إلى الأكاذيب، مثل هذا لا يقدم على الموت في سبيل عقيدة مدخولة، وهو أول من يعلم زيفها وخداعها، وهيهات أنْ يوُجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون، فإذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين إلى التصديق، فأقرب القولين إلى التصديق هو أن الرسل لم يكذبوا فيما رووه، وفيما قالوا إنَّهم رأوه، أو سمعوا ممن رآه، وليس بالمخالف للمعهود في كل زمن أن يصدق الإنسان عياناً ما يصدقه في قرارة نفسه، وبخاصة حين يجُمع الألوف على تصديقه، ولا يوُجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل.

وليذكر أدعياء التمحيص في عصرنا هذا أنَّنا نطلب من الرجل في القرن الأول للميلاد أنْ يكُذِّ ب إنساناً لغير سبب، وهو يطمئن إليه، ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق،ومن التَّكذيب

لغير سبب في ذلك العصر أنْي بُادر السامعون إلى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات، فذلك شبيه في عصرنا هذا بمن يكُذِّب إنساناً لأنَّه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها، ولا سيما إذا كان المتكلم غير معهود فيه أنْ يتعمد الكذب والاختلاق.

إن أسخف السخف أنْ يقُال إن ديناً من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق، إن تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه إيمان كأقوى الإيمان، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب، ما يعُقل منها وما لا يعُقل، ولكن لم يحدث قطَّ إقبال كذلك الإقبال الجارف الذي تلقى به النَّاس رسل المسيحية؛ لأنَّهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة، ونظروا أمامهم فرأوا قومًا مثلهم يؤُمنون غير مكترثين لما يصُيبهم،وغير متهمين في مقاصدهم، فأصغوا إليهم، وآمنوا كإيمانهم، ولولا ثقة المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بهذا الإقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يسُتمع لهم، وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاها بالصدود والنفور.